الملتقى الفكري والثقافي: الذكرى العاشرة لرحيل العلامة الدكتور عمر فرّوخ الجهة المنظمة: جامعة بيروت العربية/جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، بيروت 17- 18 كانون الأول 1997 (بالعربية).

عنوان المداخلة: المعالم الرئيسية في الإستشراق المعاصر

عبد الرؤوف سنّـو

كان الإستشراق وما يزال من أهم قنوات إغناء الفكر العربي - الإسلامي. وبإنصاف، لا يستطيع المرء أن ينكر ما قدمه لهذا الفكر، بدءاً من النقد إلى الحوار، إلى التركيز على مواضع القوة والضعف فيه، وأخيراً إسهامه في تحقيق أمهات النصوص التراثية. وحتى القرن التاسع عشر، حكمت المنهجية الفيلولوجية التاريخية اتجاهات الإستشراق، حيث قام على المعرفة الموسوعية في علوم الحديث والتفسير والفقه والفلسفة واللغة والشعر الخ. ولكي يكون المرء مستشرقاً بالمعنى التقليدي للكلمة، كان يتطلب منه معرفة متشعبة للغات شرقية عدة، منها العربية والتركية والفارسية والآرامية الخ..هذا إلى جانب معرفة علمية شاملة لكل ما يندرج تحت علم الإستشراق، من دون إهمال حقب زمنية.

ومنذ القرن التاسع عشر، عندما تحول الإستشراق إلى تخصص علمي، بدأت الدراسات الشرقية تخرج عن إطارها الديني والفيلولوجي إلى المجالات الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية متزامنة مع الحركة الاستعمارية الأوروبية (بريطانيا وفرنسا أساساً). كما تأسس العديد من المؤسسات الإستشراقية، التي كانت تخدم من ناحية أو بأخرى، مباشرة أو عكس ذلك، سياسات الدول الأوروبية تجاه الشرق والبلدان الإسلامية. فعن طريق معرفة المستشرقين لغات الشرق ومجتمعاته ومعتقداته وحضارته وعاداته، أصبحوا، سواء وعوا أم لم يعوا ذلك، رأس جسر لدولهم أثناء توسعها في بلدان المنطقة.

ومنذ عقدين من الزمن، أو ربما في وقت متزامن مع صدور كتاب ادوارد سعيد (الإستشراق)، الذي انتقد فيه الإستشراق لناحية التمركز الأوروبي وعلاقته بالاستعمار وعدم إلمام عدد كبير من المستشرقين باللغات الشرقية أو الكتابة عن الشرق من دون زيارته والاحتكاك بمجتمعاته وحضارته، حدثت ردة فعل لدى جيل المستشرقين الجدد. فخرج الإستشراق عن إطاره التقليدي وعرف تغيّرات جذرية تناولت وجوه اهتمامه ومجالات استكشافه وطرائق بحثه. ومن معالم الانتقال من الإستشراق الكلاسيكي إلى الإستشراق المعاصر: التخصص العلمي واللغوي واستخدام الطرائق العلمية المستخدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية ودراسة المجتمعات الشرقية وفهمها من الداخل، أي الدخول إلى منطق الأشياء.

لقد استلزم ظهور الإستشراق المعاصر تقاسم الإستشراق الكلاسيكي من قبل فروع علمية أخرى، كعلوم التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع واللغة والأديان والأدب المقارن الخ... وإلى جانب حقول الاختصاص هذه، ظهرت الحاجة إلى المعرفة التامة للغة شرقية يتطلبها التخصص العلمي، وليس بالضرورة المعرفة السطحية للغات عدة، كما كان يحدث سابقاً. وهذه المسألة

استلزمت بدورها أقامة طويلة للباحث في المجتمعات الشرقية والاحتكاك المباشر بشعوبها ولغاتها ولهجاتها وأدآبها. فنشأت بالتالي علاقة مباشرة وحميمة بين اللغة التي يتعلمها الباحث "المستشرق" وبين حقل اختصاصه وموضوع بحثه العلمي ومادة دراسته. فمن خلال معرفة "المستشرق – المؤرخ" للغة العربية على سبيل المثال، أصبح بإمكانه دراسة تاريخ بلد عربي واستخدام نصوص عربية في إطار عمله كباحث في التاريخ، أو جعل شرائح اجتماعية في المجتمع العربي مادة دراسته. وقد انعكست مسألة التخصص بدورها تفريعاً لعلم الإستشراق في الجامعات، وأصبح لدينا معاهد مستقلة للدراسات الإسلامية وأخرى للعربية والإيرانية الخ...

إضافة إلى ذلك، بدأ المستشرقون الجدد يسعون إلى الاهتمام بالتداخل بين النص والممارسات الاجتماعية، أي عدم الاكتفاء بدراسة النص وترجمته ونقده، كما كان يحدث في السابق، بل الاهتمام بالكائنات الحية المنتجة لهذا النص. وكان هذا يتطلب منهم تغييراً للمنهجية السابقة وطرائق البحث. وكما يقول أصحاب مدرسة الإستشراق الفرنسية من تلامذة ماسينيون، من أن الإستشراق (المعاصر) استلزم أن يكون المرء في الداخل لا في الخارج، أي أن يقترب إلى المنطق الداخلي للأشياء ويحاول الفهم لماذا قيل هذا وحدث ذاك، بعيداً عن النقد السلبي والتمركز على الذات، وبعيداً عن تحديد الذنب، بل معرفة البواعث والدوافع التي أدت إلى حدوث حدث ما وربط العلة بالمعلول والنتائج بالأسباب. ولهذا، رأى أصحاب هذا التيار وغيرهم، أن اكتساب المعارف عن الشرق يجب ألا يقتصر على الكتب والمخطوطات والوثائق الخ... بل أن يشمل المعرفة اللغوية الكاملة والتعرف على مجتمعات الشرق والاحتكاك المباشر مع حضارته الحية. كما رأوا ألا تقتصر معاينة "المستشرق" للجوانب السياسية أو الدبلوماسية لتاريخ الشرق، بل أن تشمل اهتماماته واستطلاعاته النواحي الدينية والفكرية والثقافية والحضارية والتاريخية والاجتماعية والنفسية والسلوكية والاقتصادية، وذلك لفهم الماضي واستيعاب الحاضر.

****

ما هي حقول اهتمامات "الإستشراق الجديد". سوف أركز هنا على "الإستشراق" الألماني، وأبين إلى أي مدى أسهمت مواقف الحركات الأصولية في البلدان العربية والإسلامية في ظهور نظرة عدائية للإسلام في الاستشراق الألماني، واتجاهات تعديلها حالياً.

تقول المستشرقة الألمانية أنجليكا هارتمن (Angeliika Hartmann)، رئيسة معهد الدراسات الشرقية بجامعة غيسن **"إن أعمال العنف التي تقوم بها بعض الجماعات المتطرفة في البلدان العربية والإسلامية بهدف إيجاد حكومات إسلامية غالبا ما تؤدي إلى تكوين صورة عدائية في الغرب تجاه الإسلام".** وتضيف: **"إن تشعب الحركات والمنظمات والجماعات الإسلامية من النواحي الدينية والأيديولوجية وانتشارها في العالمين العربي والإسلامي ليس واضحاً بالدرجة الكافية لإعطاء الرأي العام الغربي فكرة واضحة عن الأصولية الإسلامية، وبالتالي التفريق ما بين تلك الحركات، وهو ما أدى إلى تلك النظرة الشمولية المعادية للإسلام "**. ولهذا السبب، تعتقد أن اتجاهات الإستشراق المعاصر وظهور نظريتي **"الخطر الإسلامي"** و**"صراع الحضارت"** بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ونمو الأصولية الإسلامية، والجدل والمناقشات العديدة التي رافقت قضية المستشرقة الألمانية أنماري شيمل (Annemarie Schimmel) **(** تصديها لرواية سلمان رشدي والدفاع عن الإسلام) وتصريح رئيس الإتحاد الألماني حول عدم وجود صراع حضارات في ألمانيا (نقض نظرية هانتنغتون)، شكلت كل هذه الأمور مجتمعة منعطفاً بارزاً في

تغيير صورة الإسلام لدى الرأي العام الألماني. فتنصب جهود علماء الإسلاميات و"المستشرقين" حاليا على توضيح صورة الإسلام لدى ثلاث فئات من الشعب الألماني وهم، الرأي العام، والصحافة، والباحثين. إن الاهتمام بتوضيح صورة الإسلام للصحافة الألمانية، يعود إلى دورها الهام المؤثر في الرأي العام في البلاد.

وفي هذا الإطار، يتركز الاهتمام حالياً في بعض الجامعات الألمانية على موضوعات تتعلق بمعرفة مدى أهلية التيارات الإسلامية الرئيسية في البلدان العربية في مجابهة التحديات الخارجية والداخلية من قبل منظمات إسلامية متطرفة؛ دراسة مواقف الإسلاميين المعتدلين والمتطرفين داخل المجتمعات الإسلامية وعلاقاتهم بالأنظمة الحاكمة؛ تقصي أوجه "الصراع الثقافي" الذي يشنه العلمانيون العرب ضد المسلمين السلفيين، ولماذا لم يلق هذا النجاح حتى الآن؛ كيف يمكن تفسير الحمية الدينية المنتشرة عند الجماهير في البلدان الإسلامية؟ دراسة إمكانية فصل الدين عن الدولة وإبعاده عن السياسة واستعمال سلطة العقل؛ موضوعات العدالة الاجتماعية والمشاركة في الحكم والعصرنة والتعددية والمعارضة والمجتمع المدني وما تطرحه الحركات الأصولية من بدائل عوضاً عن النماذج الغربية؛ معرفة إلى أي مدى يمكن تطبيق مفاهيم ومقولات الدراسات الاجتماعية في الغرب على ظاهرة الجماعات الإسلامية، والنظريات الجديدة التي يمكن إيجادها لتشخيص هذه الظاهرة.

إلى ذلك، أدت حادثة المستشرقة شيمل قبل سنوات إلى دفع عملية **"فهم الإسلام من الداخل"** في ألمانيا إلى الأمام. فعندما تصدى عدد من علماء الإسلاميات الألمان لمحاولة جهات معينة في بلدهم أرادت حجب جائزة دور النشر الألمانية عن المستشرقة المذكورة، بسبب ما قيل حول تأييدها للفتوى الإيرانية بتحليل هدر دم سلمان رشدي، ولأن الإسلام بناءً على ذلك، كما قال منتقدو شيمل، لا يعرف الديمقراطية وحرية الرأي والتعبير، حاول هؤلاء العلماء إفهام الرأي العام الألماني أن إهانة الرسول محمد (صلعم) ليست مسألة تتعلق بالديمقراطية أو حرية التعبير المتعارف عليها في الغرب، بل هي مسألة تمس المبادئ الأساسية للإسلام. فكتب المستشرق الراحل فريتز شتبات (Fritz Steppat) حول تلك المسألة حينذاك، فقال: **"إني أعتبر موقف شيمل من رشدي محق. إن مهمة عالم الإسلاميات أن يقول للرأي العام الغربي بأن إهانة الرسول هي مسألة خطيرة لكل مسلم. عندما يجعل المرء النبي سخرية ويصف زوجات محمد بالعاهرات، فإن هذه المسألة تمسّ المبادئ الأساسية في الإسلام"**. هذا المنحى (الألماني) في فهم الإسلام بشكل عادل بعيد عن التحيز والانفعالية وإرث الماضي، هو مثال على ما عنيناه بـ **" فهم الإسلام من الداخل "**، وهذا في رأيي أهم معالم الإستشراق المعاصر.

****

وفي بيروت، يمكن ملاحظة التغيرات التي طرأت على الاستشراق منهجاً وطرائق بحث من خلال النشاطات البحثية للمعهد الألماني للأبحاث الشرقية التي تندرج تحت عنوان رئيسي: تكوّن المعايير وتحولاتها (Formation and Transformation of Norms) في العالمين العربي والإسلامي وآسيا الوسطى. وفي هذا الإطار تتحقق المشاريع التالية:

- تكوّن الإثنيات التركية في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وجنوب سيبيريا، حيث يتم درس اللغات واللهجات التركية المحلية.
- التاريخ الاجتماعي في الدولة العثمانية والشرق الأوسط.

- تاريخ التربية ومؤسساتها (أبحاث في المجال التربوي والمدرسي من خلال تحليل أساليب التدريس في المدارس).
- علم اجتماع الأدب وتاريخه في الشرق الأوسط، حيث يتم التركيز على الأدب المقارن العربي والتركي واستعمال الأسطورة ونقدها في الأدب العرب الحديث.
- الشفوية والتدوينية من خلال أعمال عن الطابع الجهري الحي للقراءة القرآنية في موازاة الجمع والتدوين القرآني.

كلمة أخيرة، تبقى مسألتان تستحقان التعليق، حول ما يُقال في أوساط مهينة من أن الاستشراق حتى يومنا هذا لا يزال عملاً شيطانياً وأداة استعمارية. وعندما سئل أحد أستاذة العلوم السياسية في جامعة السوربون الذين يدرسون الحركات الإسلامية في فرنسا في نهاية عام 1989 عما إذا كان يفضل أن يُطلق عليه تسمية "مستشرق"، رفض ذلك وأجاب: **" أنا مستعرب لأنني استخدمت نصوصاً عربية في إطار عملي كمتخصص في العلوم الإسلامية، ولولا معرفتي بالعربية لما أنجزت ما أنجزت ". أما كلمة "مستشرق"**، أضاف يقول: **"فلا أهمية لها في نظري وأعلم أنها مرادف لكلمة شيطان في العالمين العربي والإسلامي "**. هذه الإجابة تطرح معها تساؤلاً حول إمكانية تصنيف جميع المستشرقين في خانة واحدة ووصفهم بهذا الشكل السلبي، خصوصاً أن كلمة مستشرق ارتبطت أساساً بالصراع بين الإسلام والمسيحية ثم الاستعمار وقيام أوروبا بالسيادة على المجتمعات العربية والإسلامية وتحقير عقائد الشرقيين (الإسلام أساساً) وأخيراً، الاستحواذ على التراث العربي - الإسلامي من كتب ومخطوطات الخ..

الواقع، إن هناك مستشرقين سخروا استشراقهم عن قصد في سبيل هيمنة دولهم الاستعمارية. وهناك آخرون أخطاؤا في أحكامهم عن قصد أو من دون قصد. كما أن هناك فريقاً ثالثاً منهم من كان موضوعياً في أحكامه ونزيهاً. ولكي نكون منصفين، فقد أدى مستشرقون من الفريق الثالث خدمات جلّى للشعوب العربية والإسلامية، وذلك من خلال دراساتهم القيمة لتراثها ومجتمعاتها وأوجه الحياة فيها، في وقت تقاعست هذه الشعوب عن دراسة نفسها بنفسها، لأسباب تتعلق إما بتجربتها التاريخية مع الاستعمار أو بأوضاعها الداخلية وتخلفها وأنظمة الحكم السائدة فيها. هل يستطيع أحد ما أن ينكر تلك الآراء الموضوعية المشرفة للمستشرقين الألمانيين شتبات وشيمل هارتمان والمرحوم ألكسندر شولش في دفاعهما عن الإسلام والقضايا العربية وحقوق الشعب الفلسطيني؟ عندما نرى بكل أسف أن حوالي 90% من الدراسات عن العالم العربي تكتب في الغرب، وما نكتبه نحن المؤرخون العرب والمسلمون كـ "نقلة" عن المستشرقين وغيرهم من البحاثة الأجانب، لأدركنا على الفور أهمية الدور الإيجابي الذي لعبه الإستشراق ولا يزال في تراثنا وتاريخنا، رغم كل ما يقال عن تأثيراته السلبية علينا. فهل يُؤلف كتاب أو بحث أكاديمي في العالم العربي من دون الاعتماد على أعمال ما نسميهم "المستشرقون" ؟ يقول ادوارد سعيد معلقاً على تلك المسألة، أنه توجد في الولايات المتحدة عشرات المنظمات التي تهتم بدراسة الشرق العربي - الإسلامي، فيما لا توجد منظمة واحدة في الشرق تعمل على دراسة الولايات المتحدة. والأسوأ من ذلك، يضيف سعيد، أنه نادراً ما وجدت معاهد في الشرق كرست نفسها لدراسة الشرق. واعتبر سعيد أن غياب معاهد بحث في الشرق لدراسة الشرق كان العامل الأساسي في ازدهار الإستشراق.

تبقى أخيراً مسألة استحواذ المستشرقين على التراث العربي- الإسلامي. وسواء تم ذلك شراءً أو "سرقة" من قبلهم، أومن قبل القناصل الأجانب أو تجار المخطوطات، رغم أني أفضل لو أن "تراثنا العلمي" ظل في خزائن كتبنا وتحت أيدينا ووجدت لدينا "همة البحث العلمي"، إلا أنني

أعتقد أن هذا "الاستحواذ" صان، في ضوء الأوضاع التي سادت ولا تزال تسود في البلدان العربية والإسلامية، تراثنا وتاريخنا من الضياع والتلف. وكثيراً ما سمعنا عن كتب تراثية ومخطوطات وجدت طريقها الى صناديق القمامة أو تلفت بسبب جهل مقتنيها. ويكفي زيارة المكتبات ودور المحفوظات العربية والإسلامية والإطلاع على الإهمال الذي لحق بما تبقى من مخطوطاتنا وكتبنا التراثية وطريقة حفظها وتوثيقها، لأدركنا على الفور قيمة بقاء "ثروتنا" هذه خارج أيدينا، هذه الأيدي، لا بل العقول، التي لم تعرف قيمة تاريخها وتراثها وكيف تصونهما أو توثقهما، وتركت الغير يفعل عنها ذلك.